عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)
- دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الرابعة، 1986، [232 صفحة من القطع المتوسط].
- لغة (البحث) الكتاب: اللغة العربية.
- مجال (البحث) الكتاب: الشخصية الإسلامية.

❑ ❑ ❑

يتألف الكتاب من ستة مباحث غير المدخل والخاتمة، وما عدا المبحث الأول (الإيمان جوهر الإسلام) فإن الكاتبة دخلت في بينيات ست، لكل بينية منها مبحث: بين البشر والملائكة، بين المادية والروحية، بين العبادة والعمل (مفهوم الجهاد في الإسلام)، بين الدين والعقل، بين المحافظة والتجديد، ثم أخيراً الذاتية الإسلامية بين الفردية والجماعية (مسؤولية القدوة).

* تنطلق الكاتبة من إيمانها بقيمة الإنسان من موازين القوى لتجدها أنماطاً شتى متفاوتة، وترى أننا أبناء أمة واحدة، ومع تسليمها بأن كل إنسان منا هو عالم وحده، إلا أن الذي لا ريب فيه هو أن تفرد شخصيته لا ينبغي أن يطمس ملامح شخصية عامة تَنميه إلى قومه وأمته.

من ناحية أخرى تقدم الباحثة لموضوع كتابها من أن موضوع الشخصية الإنسانية رحب المجال يتوارد عليه أصحاب الفلسفة والإجتماع وعلم النفس والمنظرون.....، إلا أن كل هذا لا يشغلها لأنها تريد أن تقدم الشخصية الإسلامية التماساً من هدي القرآن والسنة، ففي ضوئها يمكن أن نفهم ما لحق بالشخصية الإسلامية من عوارض طارئة أو شوائب مشوِّهة.

فالإنسان كان وسيظل أبداً العامل الأول في صراع البقاء وسباق التقدم، والأمة لا تحمي وجودها ولا تحقق تقدمها إلا بمقدار ما تملك من رصيد ذخيرتها البشرية قيمة ونوعاً.

* السؤال الكبير الذي تطرحه المؤلفة والذي هو محور كتابها الرئيس هو:

«هل الشخصية الإسلامية بطبيعة فكرها الديني غير صالحة للإنسجام مع عقلية عصر العلم الحديث؟

فلطالما ألقيت تبعات هزيمة الأمة ونكوصها وتخلفها على شخصيتنا لعقليتها المعطّلة للأسباب، ومنطق تفكيرها المجافي لسنة الحياة ومنطق العلم وروح العصر، كما توصف دائماً أو كما يراد لها أن تكون.

ومن هنا جاءت محاولة الباحثة لتلمس الجوهر الحر لهذه الشخصية وضبط المقاييس المضطربة فيما يغيب عنا من ملامحها النقية وما يتشابه الأمر فيه علينا فنحسبه أصيلاً وهو في الحق دخيل.

* وفي مبحثها الأول تتكلم المؤلفة عن الإسلام والإيمان، فمئات الملايين منا يعتنق الإسلام الرسمي، إلا أن هناك من يتميز بإيمان ليكون المسلم الحق. وهناك من يمارسه - الإسلام - قولاً وشكلاً ومظهراً إلا أنه لا يتمثله عقيدة وسلوكاً.

فالإيمان برأي الكاتبة - من خلال استشهادها الطويل المتعدد بالآيات القرآنية الكريمة والأحاديث الشريفة - موكول إلى (ضمير) الإنسان أو النفس اللوامة (بالتعبير القرآني)، تفرض عليه أن يذكر الله في كل أمره، وكل مؤمن رقيب على نفسه خاضع لرقابتها وهو أدرى بما يفرط فيه وما يندم عليه ويستغفر له.

وقد يفلت من محاسبة المجتمع ولا يفلت عن حساب هذه النفس اللوامة، وكل قوانين الشرائع الوضعية عاجزة عن أن تحكم الضمير. وما من رقابة خارجية تغني عن مراقبة النفس التي أرهفها الإيمان وحمّلها أمانة الإنسان.

* ولأن الإيمان مناط الاعتبار متعلق بالقلب أصبحت (لا إكراه في الدين) أصلاً من أصول العقيدة الإسلامية، لتسقط كل وصاية كهنوتية على الإنسان وتنتحل حق تقرير مصاير العباد، فذلك لم يكن للنبي نفسه ﷺ. فما لم يؤمن الإنسان بقلب مطمئن سليم فإن حمله على الدين سيلجئه إلى النفاق الذي هو أخبث من الكفر الصريح. ثم تخلص الكاتبة إلى أن الإسلام سهل لأنه دين الفطرة، لكن تكاليف الإيمان في العقيدة الإسلامية شاقة، وأشق ما فيها أن يحمّل الإنسان أمانته الصعبة.

* وفي مبحثها الثاني وحديثها عن البشر والملائكة تتحدث الكاتبة عن جرينا

لتشبيه المؤمن التقي بالملائكة. ومن هنا كان تصورنا للشخصية الإسلامية أنها لا تتجلى إلا بمقدار ما تقرب من تمثّلنا للملائكة. وعندما يصطدم هذا التصور بواقعنا على الأرض (كبشر) فإنه ينحو بنا إلى اليأس والقنوط ليصل عند البعض أن تتعقّد شخصيته بصدمة المفارقة بين المثال والواقع.

إلا أن هدي القرآن يعلمنا أننا بشر غير ملائكة، ونحن لسنا دونهم - أي دون الملائكة - منزلة وقدراً. فالملائكة مسخَّرون في أمر ربهم، ونحن الآدميون سخّر لنا ما في السموات والأرض وما بينهما، وقد أمروا (الملائكة) بالسجود لآدم تكريماً وخضوعاً وتسخيراً بأمر الله.

إلا أن تكريم البشر لم يحل دون ما جبلت عليه من استعداد للخير والشر، للطاعة والمعصية، للهدى والضلال فذلك من مقتضيات أمانة التكليف الشاقة.

وخلق الإنسان ضعيفاً: ينسى ويعصي ويغوي لإبتلائه بوسوسة الشيطان، إلا أنه يندم ويتوب. وتأخذ التوبة مكانها الجليل في العقيدة الإسلامية، فمنطقها - أي التوبة - أن الإنسان فيما يتبلى به من معصية وذنب مرجو لأن يندم ويتوب فتكون توبته إقراراً بالذنب وعزماً على عدم الإصرار عليه، والأمر في ذلك كله يخضع لحساب النفس اللوامة وليس لإجراءات شكلية يؤديها فيأخذ بها الغفران.

ومن هنا فإن فهمنا لهذه البشرية السّوية وما يجوز عليها من نقص وخطأ وضعف، يريحنا من أزمة تعقد شخصيتنا بين ما نحرص عليه من تقوى وطاعة وتطهر وما نتورط به من إثم ومعصية.

* وفي المبحث الثالث تتكلم الكاتبة عن الشخصية الإسلامية ما بين المادية والروحية، لترى أن الإسلام لا يريد للمؤمنين أن يقهروا بشريتهم المادية ولا يروضهم على التجرد الروحي والزهد فيما تتعلق به فطرة الناس من متع الحياة الدنيا والطيبات من الرزق: فالتجرد الصارم يتحدى طبيعة البشر فينا، والزهد المنقطع يعزل الأمة عن صراع الوجود والبقاء.

لقد أبطل الإسلام الرهبانية وأسقط عنا إصر الكهنوتية والأغلال والتفت إلى حاجة البشر فينا ولم يفرض علينا الزهد في الحلال من الزينة. فلا شك أن

الإسلام عدو الترف والسرف والبطر والخيلاء ويحمينا من ضراوة الشَّره وعبودية الشهوات ووثنية المادية، إلا أنه يوسِّع علينا فيما أحل الله لنا من طيبات الدنيا وزينتها الحلال (ثم تدخل الكاتبة بتفصيل طويل وشواهد قرآنية ونبوية كثيرة جداً لتميز بين ما أحل الإسلام من طيبات وما حرّم من خبائث).

فالقضية إذن – برأي الكاتبة – ليست أن نزهد بالدنيا وزينتها وأن نكبت عواطف البشر فينا فيكون أقرب إلى الشخصية الإسلامية من ينسى نصيبه من الدنيا، إنما القضية ما فيها من حلال وحرام وطيبات وخبائث.

* أما المبحث الرابع فيدخل في بينية أخرى وهي ما بين العبادة والعمل، وفيه تعجب الكاتبة مما يروج عن الشخصية الإسلامية من إيثار للإنقطاع للعبادة والإنصراف إليها عن الدنيا ومن فيها وما فيها. والله أمرنا بعد قضاء صلاتنا في المسجد جماعة أن ننتشر في الأرض ساعين عاملين نبتغي من فضل الله. من ناحية ثانية لا يتخلف مؤمن عن الجهاد لينقطع إلى العبادة بل له أن يؤجل وقت الصلاة إذا اقتضى الجهاد هذا التأجيل ثم تقضى (الصلاة) بعد الإطمئنان.

ثم تدخل الكاتبة في مفهوم الجهاد وعباداته وأماناته وتنوعه: فجهاد بالسيف وجهاد بالمال وجهاد بالعمل وجهاد بالعلم عندما يكون بتعليم الناس ونفعهم به. وتستشهد الباحثة بقول الإمام مالك لتلميذ كان يدرس عنده وحان وقت الصلاة فجمع كتبه فسأله مالك: ما هذا؟ قال أقوم لأصلي، قال مالك «إن هذا لعجب، ما الذي قمت إليه بأفضل من الذي كنت فيه إذا صحت النية»، وبقول للشافعي كذلك «طلب العلم أفضل من الصلاة النافلة».

* وما بين الدين والعقل محتوى المبحث الخامس، فليس من المعقول أن الدين الذي يرفع مقامات العلم والعمل عالياً إلى مستوى العبادة وأفضل أنواع الجهاد يمكن أن يلصق بشخصيته (الإسلامية) من تواكل وما اتهمت به من عقلية غيبية معطلة للأسباب.

فبالرغم من أن إرادة الله سبحانه وتعالى أمر نافذ فينا وقضاء مبرم لا رادّ له ولا معقِّب عليه، إلا أننا نتحمل مسؤولية الإختيار وتبعة الكسب والعمل بإرادتنا الكسبية، ويقضي الله فينا بإرادته على ما أردنا لأنفسنا. فجبرية الإسلام ليست

إلا حتمية قانون المصير وعاقبة الكسب وإيماناً بثبات السنن الكونية في جزاء العمل وأمانة التكليف.

فالقرآن يسند الإرادة الكسبية إلى المخلوقين ويدع الإرادة العليا للخالق (ثم ترد الكاتبة على المستشرقين والإسرائيليات والمستغربين وبعض أهل الكلام بشواهد وتفصيل وحجج قرآنية ونبوية)، لتخلص الكاتبة إلى أنه ليس في كتاب الله كله لفظ التواكل بأي صيغة من الصيغ على الإطلاق، وإنما الذي فيه توكل على الله مسبوق بالعزم ومشروط به:

﴿وإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين﴾.

أما ما بين الدين والعقل فإن الكاتبة ترى أن الخطأ الأساس في القضية هو وضع الدين مقابل العقل، والإيمان مقابل العلم وكأنهما نقيضان لا يمكن إن يجتمعا في الإنسان إلا من قبيل تصادم الأضداد، وهذا ما ترفضه العقيدة الإسلامية التي حسمت الخصومة بين الدين والعقل كعنصرين جوهريين في الإنسان: يتلازمان ولا يتناقضان. فالعقل مناط إنسانيته الناطقة، فإذا عطّل بالجهل والغفلة والعمى مسخت بشرية الآدمي فهبط إلى دونية الدواب العجماء:

﴿إن شرّ الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون﴾.

* والبينية الخامسة (المبحث السادس) للكاتبة هي الشخصية الإسلامية بين المحافظة والتجديد التي ترى أنه ليس من طبيعة الأشياء ولا من سنة الحياة أن يجمد الكائن الحي لا ينمو ولا يتحرك إلا أن يكون مشلولاً أو عاجزاً مغلولاً. فالتغير قانون الحياة والأصوليون مجمعون على أن العالم متغير لأنه مخلوق، وكل مخلوق عرضة لطوارئ الحدثان. إلا أن هذا التغير لا ينفي ثبات السنن الكونية بل إن التغير سنة ثابتة في كل ما هو مخلوق حادث.

على إنه ليس حتماً في المنهج العلمي أن يكون الجديد نسخاً للقديم، فمجال التجديد يتسع لكل إضافة تكون بالنسخ أو التعديل، وتكون كذلك بتصحيح الفهم لقديم لابسته شوائب دخيله عليه، وتحرير مبادئ أسيء فهمها أو أسيء تطبيقها.

من ناحية أخرى فإن مقتضى عالمية الإسلام وخلوده أن يفي بجديد حاجات

الحياة المتطورة والظروف المتغيرة، مما ينفي عنه أي ظل من شبهة الجمود ومعاندة التجديد والتطور.

وإقرار الاجتهاد في الإسلام، كان استجابة عملية لسنة التطور وأحكام الواقع في مواجهة مقتضيات طوارئ الظروف وجديد الأصول والأوضاع. فدخل في أصول الشريعة: القياس والإجماع والإستحسان والإستصحاب والمصلحة والذرائع، تدبيراً لأوضاع طارئة لم يرد فيها نص من أصل الكتاب والسنة.

فالأمة تمضي مع حركة الزمن بحيوية واستجابة مرنة وعقلية مفتوحة دون أن تفقد ذاتها أو يخونها وعيها فيما تأخذ من غيرها وما ترفض: لا تتحرج من نقل كل جديد في العلم واستعارة ما يعوزها من ضرورات الحياة المادية، دون العقيدة واللسان والقيم والمثل والأخلاق وأصيل التقاليد وكل ما هو من عناصر ذاتها الخاصة وشخصيتها المتميزة.

* والمبحث السابع والأخير في الكتاب عن الذاتية الإسلامية بين الفردية والجماعية، حيث ترى الكاتبة أن الإسلام ألغى الحواجز غير الطبيعية بينهما: فهو في عنايته بالإنسان فرداً إنما ينظر فيه إلى اجتماعيته التي لا يمكن تصور إنسانيته بمعزل عنها، كما لا يُتصور كيان اجتماعي بغير أفراد.

فالإسلام، وقد رفض العصبية القبلية كمظهر جاهلي للجماعة، إتجه بهذه الذاتية الجماعية الأصلية إلى نطاقها الرحب في الأمة: يحقق فيها الفرد ذاته، ويستقيم أمر الجماعة بصلاح أفرادها في اندماج وثيق لا تنفصل فيه فردية عن جماعية سواءً أكانت في العبادات أو المعاملات (تم تقدم الكاتبة هدي السنة في الذاتية الاجتماعية للشخصية الإسلامية). ثم تدخل بعدها في جماعة غير المسلمين، ثم السلم وهو دعوة الإسلام العامة والسلوك الفردي والجمعي في السلم والحرب والقتال والولاية والصلح، ثم تستعرض بعدها المبادئ العليا في التسامح واحترام عقائد الآخرين وحسن الجوار. حيث يرقى الإسلام بالذاتية الاجتماعية إلى أفقها الإنساني الرحب. ثم تخلص الكاتبة إلى إجمال القول في الذاتية الإنسانية للشخصية الإسلامية بأن كل عمل ينفع الناس، عامة الناس، يتقبله الله ويزكيه ويبقيه وأي عمل يضر الناس زبد يذهب جفاء. ومن هذه الذاتية الاجتماعية للشخصية الإسلامية تأخذ (القدوة) حرمتها ومسؤوليتها في

الإسلام ويتقرر جزاؤها مضاعفاً من ثواب أو عقاب.

* وفي خاتمة الكتاب ترجع المؤلفة إلى طرح سؤالها الذي أوردته في فاتحة كتابها عن الشخصية الإسلامية وعن علاقتها بتخلف وانحدار الأمة، لترجع هذا التخلف والانحدار إلى الجهل بالفكر الإسلامي والإنحراف عن أصيل مبادئه والعزوف عن نقي نبعه وما تعرضت له شخصيتنا من ذرائع مسخ وتشويه.

❑ ❑ ❑

عناوين رئيسة:

الشخصية الإنسانية، الشخصية الإسلامية، المادية والروحية في الإسلام، العبادة والعمل في الإسلام، الدين والعقل في الإسلام، الذاتية الإسلامية بين الفردية والجماعية.

❑ ❑ ❑

ملاحظات:

- لم تتطرق الكاتبة إلى علم النفس ونظرياته ولم تناقشها أصلاً حيث بقت في اختصاصها من أول سطر لآخره في الكتاب .إلا أنها كانت تتحدث في كل كتابها عن علم النفس، عن الشخصية الإنسانية المقتنعة بالإسلام المؤمنة به العاملة بأحكامه وأخلاقه، فأعطت بذلك الصورة الصحيحة للشخصية الإسلامية كما يريدها الإسلام وليس كما يمثلها مسلم اليوم.
- مثل هذا التأصيل المنطقي المبدع يخدم علماء النفس المسلمين خدمة كبيرة جداً، فكثيراً ما خاض علماء النفس المسلمون في القرآن والحديث دون علم، وأرادوا أن يبنوا إطاراً نظرياً للشخصية الإسلامية فتحدثوا بغير ذكرهم (أي تخصصهم) رغم صلاح نيتهم. إلا أن مثل هذا الكتاب الجميل البسيط الواعي يمكن أن يؤسس لعلماء النفس مثل ذلك الإطار النظري الذي نبحث عنه، لنقيم على أساساته علم نفس يخدم البشرية جمعاء لإخراجها من تيه وأزمة المادية الغربية إلى نور وضياء الوحي والفطرة.